مجلة ميلاف للبحوث والدراسات
المجلد 7 العدد 2 / ديسمبر 2021
ص ص 152–161

أثر مصنّفات القرن الرابع الهجري النحوية في تيسير وتعليم النحو العربي كتاب "الواضح" للزبيدي عينةً

The Effect of Fourth Century (HIJRI) Compendiums on Facilitating & Teaching Arabic Grammar The Book "Al-Wadih" by Al-Zobaidi as a Sample

سليم عواريب
المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ميلة، (الجزائر)،
salim302014@gmail.com

الاستلام: 2021/09/21 القبول:2021/11/08 النشر: 2021/12/31

ملخص:

تتغيّا ورقتنا البحثية رصد أثر مصنّفات القرن الرابع الهجري النحوية في تيسير وتعليم النحو العربي، من خلال اختيار كتاب الواضح في النحو للزبيدي نموذجاً نبسط من خلاله مناهج نحاة القرن الرابع في تيسير وتعليم النحو، ومنهج الزبيدي بخاصة، إذ إنّ الزبيدي بتأليفه لهذا الكتاب لا جرم أنّه قد نصّب نفسه رائدا للتيسير والتعليم ؛ لذا نهدف من خلال هاته الدراسة إلى إبراز أهمية كتابه الواضح في تيسير النحو العربي وتعليمه من خلال منهج تعليمي فريد اضطلع به في القرن الرابع للهجرة، بعد التطرق إلى منهج نحاة القرن الرابع للهجرة عموماً ما يجعلنا نطرح إشكالاً مفاده هل لنحاة القرن الرابع للهجرة أثر في تيسير وتعليم النحو العربي؟ وما قيمة كتاب الواضح للزبيدي، وما مكانه من ذلك؟ وللوصول إلى الأهداف المسطرة سعينا إلى إتباع منهجية تقوم على توضيح بعض مفاهيم ومصطلحات الدراسة مدخلاً لها، ثم التطرّق إلى منهج نحاة القرن الرابع في التيسير، ثم سعينا إلى دراسة فحوى كتاب الواضح، ومنهج الزبيدي فيه، و أثره في تيسير المادة النحوية، متبعين في ذلك المنهج الوصفي التحليلي، ومن هنا توصّلنا بَعدَ الاستدلالِ والبرهنةِ إلى نتائجَ منها: أنّ لكتاب الواضح للزبيدي أثراً واضحاً وعميقاً في تيسير و تعليم قواعد النحو العربي للمبتدئين، لما تميز به من يسر واختصار ومنهج قويم يقوم على مراعاة مستوى المتعلمين.

الكلمات المفتاحية : المصنّفات، القرن الرابع الهجري، التيسير، النحو العربي، الواضح.

Abstract:

Our research paper aims to monitor the effect of the 4th century grammatical compendiums on facilitating and teaching the Arabic grammar, by selecting to Al-Zobaidi's book "Al-Wadih" as an example through which we seek to simplify and teach the approaches of the 4th century gramaticians in facilitating and teaching grammar, and the approach of Al-Zobaidi in particular. By authoring this book, Al-Zobaidi did not criminalize himself as a leader of facilitation and education; this is why we aim through this study to highlight the significance of his book "Al-Wadih" in facilitating and teaching the Arabic grammar,by means of a unique curriculum that was carried out in the fourth century (HIJRI). After addressing the approach of the 4th century (HIJRI) in general, which should render us to raise the questionon the gramaticians of the 4th century (HIJRI)and on whether they had aneffect on facilitating and teaching the Arabic grammar? What is the value of Al-Zobaidi'sAl-Wadih book, and what is its status? Seeking to meet the objectives, it has been sought to adopt a methodology based on clarifying some of the concepts and terminologies of the study, then to address the approach

of the fourth century toward facilitation, and then to study the content of Al-Wadih book, the approach of the Zebeidi in it, and its effect on facilitating the grammar.Following that analytical descriptive approach, this is why, using inference and proof, we have concluded with the following results: Al-Zobaidi'sAl-Wadih book has a clear and profound effect on facilitating and teaching the rules of the Arabic grammar to beginners, for it is characterized by its ability, competence and the right approach based on the learners' level

Keywords: Compendiums, fourth century HIJRI, facilitation, Arabicgrammar, Al-Wadih

.

1.مقدمة:

ليس بخافٍ على ذي لبّ أنّ التأليف العلميّ في الصّناعة النحويّة حظي بعدد كبير من المصنفات والدراسات، واتجهت اتجاهات عدّة، وتميزت بخصائص مختلفة حتى بات من شبه المستحيل أن نحصرها حتّى في قرن واحد، بَلْهَ في قرون عدة ذلك أنّ النحو العربيّ قد شهد ثورة تأليفية مباشرة بعد بروز كتاب سيبويه، على أنّه قد عَرفَ تأليفات قبله، غير أنّها لم تصلنا، فضاع معظمها وسقط من يد التاريخ وعلى الرّغم من ذلك فمازال التراث النحوي يزخر بالمصنفات التي لا نكاد نحصيها لكثرتها وتنوعها، إذ تختلف تلك المصنفات تبعاً لاختلاف اتجاهها، على أنّ أغلبها كان لغرض تعليميّ (عبادة 2009، 183)،مما يعني أنّ منها ما كان لغير ذلك، فقد أحصى بعض الدارسين هاته الاتجاهات والخصائص التي انمازت بها جل المصنفات، فمنها ما يقع تحت الاتجاه التعليمي، ومنها ما كان اتجاهها تجميعياً، ومنها ما كان تأصيلياً، بينما اتّجه قسم منها إلى الاتجاه التطبيقيّ،ويعد القرن الرابع للهجرة من ألمع القرون تأليفا وبحثاً ونضجا للعلوم وتنوعاً فكان مما ميز هذا القرن عن غيره طغيان النظر الفلسفي والجدل الكلامي والأسلوب الفقهي حتى شاب النحو العربي شيئا من أثر تينك العلوم وهو ماألفينا مازنا المبارك يقره حينما قضى باستحواذ الفلسفة على البحث النحوي في تلك الحقبة موضوعا وأسلوباً ومن أبرز مظاهر ذاك التأثير حضور التعليل في أساليبهم ومناقشاتهم النحوية فضلا صلة التأليف النحوي بالعلوم الأخرى كعلم الكلام وعلم الفقه والحديث الشريف ونظرا لوشائج القربى التي كانت بين المتكلمين والنحويين -على أن النحويين كانوا هم أنفسهم متكلمين- فقد طوعت لهم أنفسهم أنْ ظهرت آثار تلك النزعة في نحوهم فأضحى نحوا عقليا نظريا جدليا ينأى عن واقع اللغة العربية ومنطقها الخاص بها (المبارك 1965، 100، 101)،فاستعصت قضاياه واستغلقت مفاهيمه وأشكلت مسائله، بينما فضّل بعضهم التأليف طلبا للرزق والتكسب، ومما يحكى في هذا الأمر أنّ الجاحظ سأل أبا الحسن الرماني فقال له: أنت أعلم الناس بالنحو فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها ؟وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها؟ وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم؟ قال: أنا رجل لم أضع كتبي هذه لله وليس هي من كتب الدين ولو وضعتها هذا الموضع الذي تدعو إليه قلّت حاجتهم إليّ فيها.

فطلبه للتكسب جعله يعرض عن التيسير والإفهام، الأمر الذي أثار حفيظة بعض العلماء آنئذ فولوا وجوههم شطر التيسير والإيضاح وآمنوا بالابتعاد عن التفصيلات والاختلافات وتقديم العويص على المفهوم، وجنحوا إلى تعليم الناشئة مادة النحو العربي وفهم قواعده والتدرب عليها مما جعل تلك المصنفات تبدو ذات خصائص تعليمية معينة تختلف عن المصنفات العلمية الأخرى وهو ما يجعلنا نطرح إشكالات مفادها هل لنحاة القرن الرابع للهجرة أثر في تيسير وتعليم النحو العربي؟ وأين يكمن ملمحه؟ وما قيمة كتاب الواضح للزبيدي وما مكانه من ذلك؟ وهل يمكننا أن نعد الزبيدي رائدا للتيسير كما تقرر؟

من هنا يمكننا أن نفترض الافتراضات الآتية فنقول إنّ القرن الرابع للهجرة تميز باختلاف

مناهج التأليف فكان ذا اتجاهات عدة، وإنه قرن قرر فيه علماء العربية أن يسلكوا سبل التعليم والتيسر ذللاً كما هو الحال بالنسبة للزبيدي وابن جني وأبي علي الفارسي والزجاجي وهلم جراً.

كما نعتقد أنه سيسعفنا البحث لنفضل بعض المصنفات على بعض في المادة المقدمة فنفترض أن كتاب الواضح للزبيدي هو أيسر تلك المؤلفات على ما يؤاخذ عليه من استعماله لمصطلحات تبدو غريبة وهي في جوهرها غير ذلك على أنّ الزبيدي بتأليفه لهذا الكتاب لا جرم أنه قد نصّب نفسه رائدا للتيسير والتعليم وهما مفهومان (أي التيسير والتعليم) متلازمان؛ إذ لا فائدة من تعليم العويص والمستغلق مالم يتوج قَبلُ بتيسيرٍ وتسهيلٍ.

إنّنا واعتمادا على ما تقدم ذكره نهدف من خلال هاته الدراسة إلى إبراز أهمية كتابه الواضح في تيسير النحو العربي وتعليمه من خلال منهج تعليمي فريد اضطلع به في القرن الرابع للهجرة وهذا بعد التطرق إلى منهج نحاة القرن الرابع للهجرة في تيسير تعليم النحو العربي .

وللوصول إلى هذه الأهداف سعينا إلى إتباع منهجية تقوم على توضيح بعض مفاهيم ومصطلحات الدراسة مدخلاً لها، ثم التطرق إلى منهج نحاة القرن الرابع في تيسير وتعليم النحو العربي ثم سعينا إلى دراسة فحوى كتاب الواضح ومنهج الزبيدي فيه ثم بينا أثرهما في تيسير المادة النحوية زمنئذ متبعين في ذلك المنهج الوصفي التحليلي المناسب للبرهنة على الفرضيات المطروحة.

أمّا عن الدراسات السابقة التي تطرقت إلى موضوع التيسير نذكر: "تيسير العربية بين القديم والحديث" لعبد الكريم خليفة، وبحث "أبو بكر الزبيدي الإشبيلي رائد تيسير العربية" للباحث نفسه، وبحث" محاولات التجديد والتيسير" لخالد بسندي، وبحث "نحو التيسير دراسة ونقد منهجي" لأحمد عبد الستار الجواري.

ولقد توصلنا إلى نتائجَ منها: أنّ لكتاب الواضح للزبيدي أثراً واضحاً وعميقاً في تيسير و تعليم قواعد النحو العربي للمبتدئين، لما تميز به من يسر واختصار ومنهج قويم يقوم على مراعاة مستوى المتعلمين، وأنّ مصنفات القرن الرابع للهجرة النحوية تميزت بسمات وخصائص وثيقة الصلة بالتيسير كالابتعاد عن التعريفات الذهنية و عدم الإكثار من التقسيمات والتعليلات، وعدم التفصيل في القاعدة النحوية، والابتعاد قدر الإمكان عن المسائل الخلافية، وعدم العناية بالشواهد النحوية.

2- ثبت مصطلحيّ:

من الجليّ أنّ محاولات حركة تجديد النحو وتيسيره في القديم والحديث قد اتّخذت مصطلحات عدّة ولعلّ أبرز تلك المصطلحات في القديم مصطلح الواضح الذي اصطفاه الزبيدي عنواناً لكتابه على أنّ هناك تعبيرات أخر سبقت لفظ الواضح كالمدخل عند المفضل بن سلمة والمبرد، و المختصر عند الكسائي و اليزيدي وابن كيسان وأبي موسى الحامض الكوفي، والموجز عند ابن السراج، والأوليات عند أبي علي الفارسي و اللمع عند ابن جني وهلم جراً، وهي أوصاف وإن كانت لا تعبّر عن التيسير أو التجديد مباشرة ولكنها تستهدف في مجملها تقريب وتبسيط المادة للمتعلمين والمبتدئين الذين يرومون تعلّم النحو، وتكاد تتوسع دائرة الألفاظ المعبرة عن التيسير كلما تقدمنا في تاريخ التأليف النحوي حتّى القرن الثامن تقريبا (بن حمودة 2016، 11) ففي الحديث شاعت مصطلحات أخر من مثل الإحياء و والتحديث والتوضيح والتجديد والإصلاح والتيسير والتهذيب وغيرها (بن حمودة 2016، 13، 14)، وواضح أنّ المقام لا يسعفنا لتوضيح هاته التسميات جميعا، لذا سوف نقف عند أبرزها قديما وحديثا، وسنركز في القديم على القرن الرابع للهجرة؛ لأنّه موضوع بحثنا، ولأنّ

أغلب الدراسات تركّز على مصطلحات المحدثين فقط .

2-1-الموجز والمختصر:

الاختصار لغة حذف الفضول من الكلام (أنيس و وآخرون 2004، 237) والإيجاز من أوجز الكلام قصّره وقلّله واختصره، وقلّ في بلاغة (أنيس و وآخرون 2004، 1014)ويشير هذان اللفظان إلى تلافي المؤلفات الشمولية في النحو التي تؤثر التطويل والتوسع وكثرة التعليل، وتروم الموجزات والمختصرات اختزال أمّات المصنفات النحوية فهي بهذا المفهوم مصنفات متفرعة عن الأمات المطولات .

2-2-الواضح واللمع:

جاء في المعجم الوسيط وضح بَانَ وظَهَرَ و لَمَعَ الشيء بَرَقَ وأَضَاءَ وبَرَز (أنيس و وآخرون 2004، 839، 1038) وهما معنيان يلتقيان في الظهور والبروز ويبتعدان عن الغموض والاختفاء.

وهي تعني عند واضعها «أنّ إدراك المضمون التعليمي للنحو ليس باليسير بل يحتاج إلى خبير بالصناعة النحوية ليكتشف سرّه ويجليه واضحاً » (بن حمودة 2016، 11) لذا فقد لجأ الزبيدي إلى اليسر بمنهج فريد استهدف به المبتدئ وسوف نبين صنيعه ذاك في سياقه من هذا البحث على أنّ لفظ الوضوح ورد في القديم كما سبق البيان وورد في الحديث أيضاً، بيد أنّ ما استرعى الباحثين من هاته التسمية هو أن بنيتها الاسمية «تعبر عما هو في حكم الحاصل» (بن حمودة 2016، 16) ولهذا هناك فرق بين تصور القدامى لهذا المصطلح وتصور المحدثين فالمحدثون يعتقدون أن التوضيح والواضح «إنّما هو من قبيل المطلوب وجوده » (بن حمودة 2016، 16) أما القدامى فكما سبقت الإشارة يرون أنّ التوضيح حاصل بالفعل.

وأما في العصر الحديث فيمكن لنا عرض المصطلحات الآتية:

2-3-الإحياء :

الإحياء في اللغة مصدر الفعل أحيا ،أحيا الله فلانا جعله حياً (أنيس و وآخرون 2004، 213)

يعد هذا المصطلح أول المصطلحات ظهورا تقريبا استعمله إبراهيم مصطفى عنوانا لكتابة إحياء النحو والتسمية في الحقيقة هي من اقتراح طه حسين الذي كتب مقدمة إحياء النحو وهو يتصور أن الإحياء هنا يقصد بها أمران:

الأول وهو «أن يقربه النحويون من العقل الحديث ليفهمه ويسيغه ويتمثله ويجرى عليه تفكيره إذا فكر ولسانه إذا تكلم وقلمه إذا كتب» (مصطفى 2002، س) والثاني «أن تشيع فيه هذه القوة التي تحبب إلى النفوس درسه ومناقشة مسائله والجدال في أصوله وفروعه وتضطر الناس إلى أن يعنوا به بعد أن أهملوه ويخوضوا فيه بعد أن أعرضوا عنه» (مصطفى 2002، س) ويعتقد طه حسين أنّ إبراهيم مصطفى قد وفق في إحياء النحو على هذين الأمرين لأنّه كان يعرض علما حيا يبعث الحياة في الذوق ولا يعرض مسائل جامدة بقدر ما يفتح الطريق رحبا أمام النحاة لإحياء اللغة والأدب معاً.

2-4-التيسير: في اللغة يسر الشيء ييسر يسرا سهُل وأمكن ولان وانقاد (أنيس و وآخرون 2004، 1064)

لا تخرج معظم الأبحاث التي عنيت بتيسير النحو عن المعنى العام المتداول له الذي يفيد ان التيسير «يعني التسهيل والاختصار وتذليل الصعب من مباحث النحو وتمهيد الوعر من مسالكه» (الجواري 1984، 15)، يعني ذلك أنه تبسيط واختصار غير أنّ هذا المعنى قد لقي اعتراضاً كبيراً من لدن بعض الباحثين فمنهم من جعل هذا المعنى جزءا من التيسير فقط وليس التيسير كله، وجعل زيادة على ذلك «أن يتسع موضوع التيسير حتى يشتمل على تغيير في دراسة العربية بالنسبة للمتخصصين تغييراً يصل بين علومها وينتهي إلى فهم واع عميق وتذوق صحيح سليم » (الجواري 1984، 15)

ولقد نبه بعضهم الآخر إلى مفهوم دقيق للتيسير ينأى عن المفهوم العام الذي شاع عنه مفاده إعادة النظر في القواعد النحوية، إذ جاء عند عبد الرحمن الحاج صالح أن التيسير «هو تكييف النحو والصرف مع المقاييس التي تقتضيها التربية الحديثة عن طريق تبسيط الصورة التي تعرض فيها القواعد على المتعلمين فعلى هذا ينحصر التيسير في كيفية تعليم النحو لا في النحو ذاته» (صاري 2001، 151، 152)

ولعلّ المخزومي لم يبتعد كثيرا عن هذا المفهوم حينما ربطه بمنهج عرض مادة النحو فيقول: « التيسير ليس اختصاراً ولا حذفا للشروح والتعليقات ولكنه عرض جديد لموضوعات النحو بيسر للناشئين أخذها واستيعابها وتمثلها» (المخزومي 1986، 15)

يتضح مما سبق بيانه أنّ التيسير يتلخص في المنهج والطريقة والأسلوب المتبع في تعليم النحو أي كيفية تعليم قواعد النحو لا تغيير أو اختصار القاعدة النحوية.

2-5-التجديد: في اللغة من جدد يقال جدد الشيء صيره جديداً (أنيس و وآخرون 2004، 109)

لقد ارتبط مصطلح التجديد بحذف بعض الأبواب النحوية وبالاختصار ووصل إلى حد إلغاء نظرية العامل النحوي والإعراب التقديري وإعادة تنسيق أبواب النحو تقريبا وقد تجلى هذا العمل في أول الأمر عند ابن مضاء القرطبي ووضح اكثر في العصر الحديث حينما الف شوقي ضيف كتابه تجديد النحو الذي أسسه على أربعة أسس سبق ذكر بعضها آنفاً، ونضيف لها هنا وضع تعريفات وضوابط دقيقة لأبواب المفعول المطلق والمفعول معه والحال (ضيف 1986، 4) وبذلك يكون التجديد كما يرى محمد حسين الصغير« فك الحصار عن التراث النحوي ليعود طليقا بعد الأسر وبعث الحياة في المنهج النحوي ليعود غضا طريا بعد الجفاف في محاولة لإصلاحه وتجديده في ضوء ضوابطه الفطرية دون المعالجات الكلامية والتقسيمات المنطقية التي التزمت الحدود والرسوم في الإعراب وعلاماته وابتعدت عن النحو في معانيه ومراميه الأخرى» (بسندي 2008، 63)

3- منهج نحاة القرن الرابع في تيسير وتعليم النحو العربي:

يُلْمِعُ كثيرٌ من العلماء و الباحثين إلى أنّ القرن الرابع الهجري هو العصر الذهبي لعلوم العربية بعامة وعلم النحو بخاصة إذ «صنفت فيه الموسوعات واكتشف المكنون من أصدافه وتعددت ألوان صوره المختلفة» (الطنطاوي 1991، 117)، كما يتسم في مقابل ذلك بالغموض في التعبيرات النحوية وطرق الاستدلال، ومعروف ما دار بين الرماني من نحاة القرن الرابع ورجل قرأ عليه كتاب سيبويه ولما فرغ الرجل من قراءته قال للرماني: أمّا أنت فجزاك الله خيراً وأما أنا فما فهمت شيئاً، و يقول أبو علي الفارسي النحوي عن نحو الرماني: إنْ كان النحو ما يقول الرماني فليس معنا منه شيء، وإنْ كان النحو ما نقوله فليس معه منه شيء (بن غازي 2004، 8)، لهذه العلل كلّها وغيرها اضطلع بعض النحاة بتآليف نحوية تروم تيسير تعليم النحو العربي وُصفَتْ في كثير من الأحايين بالمؤلفات التعليميّة أو الاتجاه التعليميّ وهي مؤلفات « تجنح إلى التمثيل وتعزف عن ذكر التفصيلات والاختلافات والشواهد» (بن غازي 2004، 15)،وهي في الغالب الأعم تبدأ بذكر القاعدة النحوية وتنأى عن ذكر الخلافات النحوية او قد تذكر القليل منها فقط وتستهدف هذه التآليف تعليم مادة النحو العربي للتلاميذ ومساعدتهم على فهمها والتدريب عليها بحسب مستواهم ومداركهم.

ومن هذه المؤلفات الكثيرة في القرن الرابع نذكر: كتاب وجوه النصب لابن شقير(ت317ه)،وكتاب الجمل في النحو لأبي القاسم الزجاجي(337ه)، وكتاب التفاحة لأبي جعفر النحاس(ت337ه)،

وكتاب الإيضاح العضدي لأبي علي الفارسي(ت377ه)، وكتاب الواضح للزبيدي(ت379ه) موضوع بحثنا، وكتاب الحدود في النحو للرماني(ت384ه) وكتاب اللمع في العربية لابن جني(ت392ه).

ويمكن أن نلخص أهم سمات وخصائص هاته التآليف في الآتي (بن غازي 2004، 97)

1-الابتعاد عن التعريفات الذهنية

2-عدم الإكثار من التقسيمات والتعليلات

3-عدم التفصيل في القاعدة النحوية

4-الابتعاد قدر الإمكان عن المسائل الخلافية

5-عدم العناية بالشواهد

6-الاختيار والانتخاب من المذاهب النحوية المختلفة اليسر للمتعلم وعدم الاقتصار على مذهب بعينه.

ولا شك أنّ هاته الصفات تتفاوت من مؤلف لآخر، بحسب منهج كلّ مؤلف في مؤلفه، ولكن كان دائما هناك رباط يربطه جميعا يستهدف تيسير تعليم النحو للناشئة وهو ما يتضح جليا حينما تتصفح كتابين لمُؤَلِفٍ واحد فتجد منهج أحدهما يختلف عن الآخر فالفرق كبير بين مؤلفي ابن جني الخصائص واللمع حيث عرض في اللمع الأبواب النحوية والقضايا الظاهرة المعروفة بينما نجده في الخصائص يفصل ويعرض آراءه النحوية (خليفة، 2008، صفحة 3)، ويحلل ويناقش ويسأل ويجيب ويجتهد ويفترض وهلم جراً والأمر نفسه مع كتابي الزبيدي مثلا "أمثلة الأبنية في كتاب سيبويه" وكتاب "الواضح"

إنّ هذه الاعتبارات تؤكد زعمنا بأن نحاة القرن الرابع للهجرة فعلا قد ولوا تأليفاتهم شطر تيسير وتبسيط تعليم النحو العربي، من خلال منهجهم الذي توخوه في مصنفاتهم، و حتى يصح تقرير هذا الأمر يمكن لنا فحص ذلك من خلال الاستدلال بأحد مصنفات القرن الرابع، وليكن كتاب الواضح للزبيدي محلّ الدراسة .

إن الناظر في كتاب الواضح ليلمح المنهج التعليمي الذي توخاه الزبيدي في عرض أبوابه وفصوله فهو كما سبق بيانه يبتعد عن التعريفات الطويلة والتقسيمات المملة والاختلافات النحوية العقيمة حيث لا نجده يتبع اصطلاحات مدرسية كوفية أو بصرية فهو يوظف مصطلحات المدرستين معا فقد ذكر في موضعين مختلفين مصطلحي الخفض والجر معاً (الزبيدي 2010، 47، 76)،ونجده في مواضع أخر لا يفصل في القاعدة النحوية بل يكتفي قدر الإمكان بذكر القاعدة والمثال الموضح كقوله في تعريف البدل: «اعلم أنّ المبدل تابع للمبدل منه جار عليه في جميع إعرابه والبدل على ضربين بدل البيان وبدل الغلط فأما بدل البيان فيكون أن تبدل الشيء من الشيء الذي هو هو كقولك: مررت بأخيك زيد زيد بدل من أخيك كانك قلت :مررت بزيد... » (الزبيدي 2010، 104)، ثم يبين بدل الغلط بنفس النمط والتمثيل له، فأنت ترى يسرا لا نظير له في تقديم القاعدة والتمثيل لها بأمثلة يسيرة هي أيضا يسهل على المتعلم المبتدئ استيعابها قريبة المأخذ واضحة الدلالة، مستغنيا عن ذكر الشواهد العربية (بن غازي 2004، 125)، فما اثر هذا المنهج الذي توخاه الزبيدي في كتابه في تيسير تعليم النحو العربي؟

لا ريب أنه سيتضح هذا الأمر أكثر حينما تتكفل الفقرة الموالية من تبيين ملامح ذاك الأثر الذي انبعث من منهج الزبيدي في كتابه الواضح.

4- أثر كتاب الواضح في تيسير وتعليم النحو العربي:

لا يمتري أكثر الباحثين في عد كتاب الواضح للزبيدي من ضمن المؤلفات النحوية التي عنيت بتيسير العربية عموما والنحو بصفة خاصة، ذلك أنّ الزبيدي قد انتهج منهجا جديرا بالاهتمام والدراسة، منهجاً يقوم على لملمة أهم علوم العربية لأمر أراده نعتقد انه سبيل وطريق إلى تعلم النحو والعربية فكتاب الواضح لم يفرده

الزبيدي للنحو فقط بل نظر إلى اللغة باعتبارها وحدة متكاملة فقد جمع إلى جانب النحو علوم العربية الأخرى كالصرف والصوتيات وهو اتجاه تربوي وعلمي عميق ودقيق ميز هذا القرن ربط فيه الزبيدي بين النحو وعلوم اللغة الأخرى وارتباطهما بالمعنى وعدم الفصل بين قواعد النحو واللغة، أي انه كان يرمي إلى تعليم النحو من حيث ارتباطه باللغة (خليفة، 2008، صفحة 5، 6)، إذ كان يرمي إلى التمييز الواضح بين « دراسة النحو لغرض المخاطبة وما يحتاجه المرء في قراءة الكتب المجموعة في العلوم فقط وبين دراسته لمن أراد أن يجعله معاشاً » (الزبيدي 2010، 20)، وهو ما أغنانا ابن حزم بتوضيحه في رسائله حينما اشار إلى أن «التعمق في علم النحو فضول لا منفعة بها بل هي مشغلة عن الأوكد ومقطعة دون الأوجب والأهم وإنما هي تكاذيب فما وجه الشغل بما هذه صفته؟» (الأندلسي 1987، 66)،و يذهب ابن حزم إلى أبعد من ذلك حينما ينص على أنّ أهم مصنف يصلح للغرض الذي ذكره من تعلم النحو إنما هو كتاب الواضح للزبيدي يقول ابن حزم في هذا السياق: « واللغة هي ألفاظ يعبر بها عن المعاني فيقتضي من علم النحو كل ما يتصرف في مخاطبات الناس وكتبهم المؤلفة ويقتضي من اللغة المستعمل الكثير التصرف وأقل ما يجزئ من النحو كتاب الواضح للزبيدي أو ما نحا نحوه كالموجز لابن السراج...» (الأندلسي 1987، 66)

يتضح مما سبق بيانه أن الزبيدي إنما قصد من تأليف كتابه اليسر وكل ما من شانه أن يسهم في تعليم النحو للناشئة والمبتدئين، وقد كان ذلك بشهادة ابن حزم الذي فرق بين نحوين نحو علمي ونحو تعليمي، واختار كتاب الواضح لأن يكون كتابا مدرسيا وهو دليل على أن الزبيدي ألفه لغاية تعليمية، أضف إلى ذلك أنّ **"الحكم المستنصر"** قد اختار الزبيدي أنْ يكون مؤدباً لولي العهد هشام المؤيد، وهو ما دفعه ربما لتأليف كتاب الواضح (الزبيدي 2010، 25)

إنّ ما يزيد من إثبات الأثر الطيب الذي تركه كتاب الواضح في مشروع تيسير وتعليم النحو في القرن الرابع هو الاستدلال على هذه الافتراضات ثم الحكم النهائي عليها، لذا نعتقد أن ما سنمثل به على ما ذكره ابن حزم وما افترضه البحث سيسعفنا في الإجابة عن الإشكال المطروح.

إنّ أول ما يثير الانتباه في عرض قواعد الواضح لجوء الزبيدي إلى تبسيط القاعدة المعقدة ولو كان ذلك بكسر القاعدة المطردة عند النحاة، نحو تسميته لنائب الفاعل مفعولاً مرفوعاً يقول في باب نائب الفاعل الذي سماه باب المفعول الذي لم يسم فاعله: « إذا اوقعت الفعل على مفعول ولم تذكر الفاعل فارفع المفعول وأقمه مقام فاعله في إعرابه تقول ضرب زيد ضرب فعل ماض وزيد مرفوع لأنه مفعول لم يسم فاعله فقام مقام الفاعل» (الزبيدي 2010، 57)، فهو يلجأ إلى تغيير بعض الأحكام والسنن النحوية في سبيل إيصال الفكرة للمتعلم وإفهامه، ومن ذلك أيضاً رأيه في حبذا واختياره لرأيه حيث جعل (حبذا): (حب) فعل ماض، و(ذا) اسم المشار إليه وأصلها (حب ذا الشيء)، ولما كثر استعمالها صار (حب) و(ذا)كلمة واحدة وصارت (ذا) كالباء من (ضرب) وارتفع ما بعد (حبذا)وهو رفع بحبذا (الزبيدي 2010، 115، 116)

فضلا عن رأيه في إعراب حرف الاستقبال السين فكان يعرب عبارة (سَيُكرَمُ زَيدٌ) مثلا سيكرم فعل مستقبل وزيد مفعول لم يسم فاعله فيعد سيكرم كاملة كلمة واحدة فلا يشير إلى السين وحدها كما فعل مع حبذا، وإعراب الجمل منهج اتبعه الزبيدي في مباحث النحو كلها لتدريب المتعلم على الإعراب وتقريب الفهم له.

ويلجأ غالبا إلى أسلوب التوضيح والتقريب حينما يوظف السؤال والجواب عنه والتكرار بعد ذلك، كأن يقول: « فإن قيل لك أين الرفع في

قولك رجل؟ فقل في اللام لأنه آخر الاسم وكذلك الرفع في قولك ثوب في الباء لأنه آخر الاسم... » (الزبيدي 2010، 47، 57)

كما تجدر الإشارة إلى أمر ذي بال يربطنا بما قلناه عن رؤية الزبيدي الشمولية لعلوم اللغة وعدم فصله بين النحو واللغة وهو أنّه« نظر إلى اللغة من حيث ارتباطها بالمعنى وعني بإيراد الأمثلة الكثيرة الشائعة الاستعمال محاولا تقويم التراكيب اللغوية الدارجة على الألسن وإشاعة الصحيح منها سواء أكان ذلك في مجال المخاطبة أم في مجال الكتابة سالكا في ذلك طريق اليسر والسهولة دون أن يثقل ذهن المتعلم بكثير من قواعد العربية» (خليفة، تيسير العربية بين القديم والحديث 1986، 49)

ومن بين خصائص منهج التيسير من اجل تعليم المادة عدم لجوء نحاة القرن الرابع المعنيين بالتيسير إلى الأدلة النقلية والعقلية لأنها لا تناسب فئة المتعلمين والناشئين، لذا أبى الزبيدي اعتمادها في شرح قواعده وفضل استعمال الأمثلة الموضوعة كما سبق البيان هروبا من أن تجرهم الشواهد اللغوية إلى الشرح والملاحظات البلاغية وتباين الآراء وهي ما تتنافى وتعليم المبتدئين على أننا ننبه أنه قد استعمل من الشواهد بيتاً وشَطْرَ بَيْتٍ فقط استدل بهما على بيان الشذوذ عن القاعدة لضرورة الشعر وهما:

1-البيت الأول واستدل به في باب عسى وهو قول الشاعر: (الزبيدي 2010، 149)

عَسَى الكَرْبُ الذِي أَمْسَيتُ فِيهِ*يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيْبٌ**

حيث احتج به على سقوط أن من خبر عسى إذ أشار الزبيدي إلى أن سقوطها هنا ضرورة شعرية (الزبيدي 2010، 149)والأصل أن يقول: عسى الكرب...أن يكون...

2-شطر البيت واستدل به في الباب نفسه حينما تحدث عن كاد وعن المسألة نفسها حيث أشار إلى عدم ذكر أن مع خبر كاد إلا للضرورة الشعرية واستدل بهذا الشطر الذي يقول فيه الراجز: **قَدْ كَادَ مِنْ طُولِ البِلَى أَنْ يَمْصَحَا** .

والأصل أن يقول: كاد من طول البلى يمصحا (الزبيدي 2010، 149)

كما أبى أيضا الإكثار من الأدلة العقلية إلاّ ماجاء عرضا في «إحاطة المتعلم بمطابقة القياس» (الزبيدي 2010، 189)

من هنا يمكن أن نستنتج أنّ كتاب الواضح للزبيدي قد ترك أثراً طيباً في تيسير و تعليم قواعد النحو العربي للمبتدئين وأحيط بهالة من الإعجاب ونال حظا وافراً من الإطراء العلمي كما ذكرنا آنفاً لما تميز به من يسر واختصار ومنهج قويم يقوم على مراعاة مستوى المتعلمين، فهل يمكن لنا بعد هذا أن نسلم بسلامة هذا المنهج التعليمي مطلقاً هذا ما سنجيب عنه في الفقرة الموالية باختصار.

مهما يكن من شيء فإن الاعتبارات التعليمية التي ذكرناها سابقاً التي أسهمت بشكل أو بآخر في نجاح نحاة القرن الرابع للهجرة في انتهاج منهج تعليمي يَسّرَ بالفعل من المادة النحوية، وجعلها في كثير من المواضع لقمة سائغة للمتعلمين غير أنّ هناك من عاب هذا المنهج الذي تمادى في عدم ذكر التفصيلات والجزئيات مما نتجت عنه خروم وثلم تمثلت في إهمال كثير من الجزئيات المهمة في القواعد النحوية وقد ذكر منها أبو تاكي الآتي:

1-إغفال الحديث عن اسم لا في باب التبرئة إذا كان مضافا أو شبيها بالمضاف

2-إغفال الابتداء بالنكرة كما أغفل أنواع الحذف الجائزة والواجبة في الجملة الاسمية وترك معظم ما يتعلق بترتيب الجملة الاسمية من وجوب التقديم والتأخير في باب الابتداء وخبره

3-لم يفرق بين ما ينصب مفعولين أصلهما المبتدأ والخبر وغيره من الأفعال ولم يشر إلى حذف هذين المفعولين أو أحدهما اختصارا أو اقتصاراً في باب المفعول الذي لم يسم فاعله.

4-أغفل التوكيد اللفظي واعتبر ألفاظ التوكيد المعنوي نعوتا في باب نعوت الإحاطة

5-أغفل الحديث عن النعت السببي في باب النعوت، وأساليب التعجب السماعية والحال الجامدة والحال الجملة وشبه الجملة، وأمورا أخرى لا يسع المقام لذكرها جميعاً (بن غازي 2004، 126، 127).

لن نجانب الصواب إنْ قلنا إنَّ إهمال الزبيدي لتلك المسائل النحوية المذكورة إنما هو إهمال لقضايا جوهرية في القواعد النحوية قد تقود المتعلم لفهم دقائق وفرائد هذا العلم وهو النحو العلمي الذي ربما تخص المتخصص أكثر، أما ما يتعلق بالنحو التعليمي فإن عدم ذكر تلك التفصيلات والجزئيات على وفق المنهج التعليمي الخالص نعتقد أنه هو الصواب وهو ما دعا إليه حرص الزبيدي ونحاة القرن الرابع على اختصار المادة العلمية وتوضيحها وتيسيرها وإتباع التعليل التعليمي لطالب النحو العربي (بن غازي 2004، 127، 128)

5- الخاتمة:

نخلص إلى أنّ نحاة القرن الرابع للهجرة قد أبلوا بلاء حسناً، و أسهموا من خلال مؤلفاتهم النفيسة في إشاعة منهج قويم يقوم على تيسير المادة النحوية واللغوية وتعليمها بعدما اقتنعوا بتعقيد المادة النحوية بخاصة، في زمن ما، مما جعل كثيراً من المتعلمين والعلماء يعجزون عن تعلم النحو وفهمه، وقد وصل حدّ هذا العجز إلى العلماء بله المتعلمين.

* لقد اتخذ العلماء والنحاة مصطلحات عدة للتعبير عن التيسير منذ القديم حتى العصر الحديث وقد ذكرنا معظمها في متن البحث.

*اختلف النحاة والعلماء في مفهوم تلك المصطلحات وبخاصة مصطلح التيسير إذ عرفه كل من زاوية نظره كما جرى مع عبد الرحمن الحاج صالح ومهدي المخزومي.

*تميزت مصنفات القرن الرابع للهجرة النحوية بسمات وخصائص وثيقة الصلة بالتيسير كالابتعاد عن التعريفات الذهنية و عدم الإكثار من التقسيمات والتعليلات

عدم التفصيل في القاعدة النحوية والابتعاد قدر الإمكان عن المسائل الخلافية وعدم العناية بالشواهد.

*انتهج الزبيدي منهجاً يقوم على لملمة أهم علوم العربية وهو سبيل وطريق إلى تعلم النحو والعربية فكتاب الواضح لم يفرده الزبيدي للنحو فقط بل نظر إلى اللغة باعتبارها وحدة متكاملة فقد جمع إلى جانب النحو علوم العربية الأخرى كالصرف والصوتيات وهو اتجاه تربوي وعلمي عميق ودقيق ميز هذا القرن الرابع.

*عدم لجوء نحاة القرن الرابع المعنيين بالتيسير- ومنهم الزبيدي- إلى الأدلة النقلية والعقلية لأنها لا تناسب فئة المتعلمين والناشئين.

* لقد ترك كتاب الواضح للزبيدي أثراً واضحاً وعميقاً في تيسير و تعليم قواعد النحو العربي للمبتدئين ونال حظاً وافراً من الإطراء العلمي لما تميز به من يسر واختصار ومنهج قويم يقوم على مراعاة مستوى المتعلمين.

* كما يمكن لنا أن نسلّم بصحة الفرضيات التي أكدت على القيمة العلمية التي تميز بها كتاب الواضح للزبيدي حتّى بات مصنفاً يُدرَّسُ ويُعتَمدُ في التعليم، وبات مؤلِفُهُ مؤدباً يؤدِبُ أبناء الملوك والسلاطين، و يمكن **أن** نجد ضمن الكتب التعليمية التي سردناها كتابا يحمل القيمة العلمية التعليمية نفسها، من شأنها أن تفتح آفاقا و مجالاً آخر للبحث والتحليل في هذا الموضوع، ككتاب اللمع لابن جني، وكتاب الإيضاح العضدي لأبي علي الفارسي، وكتاب الحدود في النحو للرماني.

قائمة المراجع:

-إبراهيم أنيس، و وآخرون. المعجم الوسيط. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2004.

-إبراهيم عبادة. النحو العربي أصوله وأسسه وقضاياه وكتبه. القاهرة: مكتبة الآداب، 2009.

-إبراهيم مصطفى. إحياء النحو. القاهرة: دار الآفاق العربية، 2002.

-ابن حزم الأندلسي. رسائل ابن حزم الأندلسي. تحرير إحسان عباس. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1987.

- أ بو بكر الزبيدي. الواضح في النحو. تحرير عبد الكريم خليفة. عمان: دار جليس الزمان، 2010.

-أحمد عبد الستار الجواري. نحو التيسير دراسة ونقد منهجي. العراق: مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1984.

-خالد بسندي. "محاولات التجديد والتيسير." مجلة الخطاب الثقافي، رقم 3 (2008): 63.

-رفيق عبد الحميد بن حمودة. "تيسير النحو من هاجس الإحياء إلى مقتضيات التعليم التطبيقية." اللسانيات العربية، رقم 3 (2016): 11.

-سعود أبو تاكي بن غازي. خصائص التأليف النحوي في القرن الرابع الهجري. القاهرة: دار غريب، 2004.

-شوقي ضيف. تجديد النحو. القاهرة: دار المعارف، 1986.

-عبد الكريم خليفة. "أبو بكر الزبيدي الإشبيلي رائد تيسير العربية." مجمع اللغة العربية الأردني، 2008.

—. تيسير العربية بين القديم والحديث. الأردن: منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، 1986.

-مازن المبارك. النحو العربي العلة النحوية. بيروت: المكتبة الحديثة، 1965.

-محمد الطنطاوي. نشأة النحو وتاريخ نشأة النحاة. القاهرة: دار المنار، 1991.

-محمد صاري. "تيسير النحو ترف أم ضرورة." مجلة الدراسات اللغوية، رقم 2 (2001): 151، 152.

-مهدي المخزومي. في النحو العربي نقد وتوجيه. بيروت: دار الرائد العربي، 1986.